تمهيد

القراءة في حياة الداعية

كان نشيد الداعية الأثير هو :

ما تطعمت لـذة العيـش حـتى صرت للبيت والكتاب جليسـا

ليس شيء عندى أعز من العلم فمـا أبتغـى سـواه أنيسـا

إنما الذل في مخاطبـة النـاس فدعهم . . وعش عزيزا رئيسا

وقد عاش عزيزا فعلا . . متحملا مسؤولية ما به عزته وإن كان باهظا فقال:

[كنت أمشى حافيا في حر الهواجر :

لا أجد دابة أركبها . وكنت أحمل كتبى على ظهرى] .

ولقد كان مما يعده هو المغالاة بما هو فيه . . في مواجهة أهل الدنيا :

وذلك قوله : (إذا كان مجدا لتاجر في كيسه . . فإن مجد العالم في كراريسه]

وإذ بحرص أهل الدنيا على ما يملكون من حطامها . . فقـد كان حرصه على كتبه التى هى ثروته .

بقوله : [كنت في طريقى إلى أصفهان . فـأخذنى المطر ليلا . ومعى كتبى ولم أكن تحت سقف ، فتفكرت في كتبى ؟!!

فخشيت عليها البلل .

فانكببت عليها . حتى أصبحت . . وهدأ المطر] !

وهكذا الكتاب في حياتك :

يعلمك إذا جهلت ويرشدك إذا ضللت ويسليك إذا أردت ويؤنس وحدتك ويزيل وحشتـك ويغسل عنك ، يحدثك بكل لغة ويـكشف لك عن كل سر ويجلو لك كل غامض ، ويعلل لك كل حادث ، ويعرفك بأحـداث كل أزمة تفتح به كل أمر مغلق

وتتناجى معه في كل موضوع وتخترق بمعونته كل أفق ، وتعرف عن طريقه كل مجهول ، به تعلو شابا وتعظم قدرا ، إنه أكرم ما فى الوجود طبيعة ، وأنفسها قيمة وأوسعها صدرا .

إنه يرفع الأحساب الوضيعة ويحقق الآمال البعيدة والرغائب الجليلة إنه يؤنس فى الوحشة ويسلى في الغربة ، به تكتسب مالا وتزيد جمالا .

هل عرفت الآن هذا الصديق العظيم ؟

إنه الكتاب خير جليس في الزمان ، إنه روح الحضارة وسجلها ، إنه ديوان المدنية ومصدرها ، إنه ينبوع العلم ومحرابه ، لا علم بغير كتاب ، ولا قيمة لامرئ أو شعب بغير علم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦].

الديانات التى لا ينتظم للعالم بدونها أمن أو سلام ، ولا تطيب للناس حياة إلا في ظلها ، تلك الديانات قد جاء بها الرسل ثم فارقوا دنيانا ، وبقى الكتاب أمينا على رسالتهم يصونها ويبلغها ويجعل من أجل ذلك قداسة الأنبياء والمرسلين .

المذياع والتليفزيون والبرق والمسرة والسيارة والطيارة والصاروخ ونحوها ، أليست كلها ثمرة من ثمرات العلم حمل بذورها الكتاب وظلت ترويها العقول جيلا بعد جيل، ويسجل الكتاب نموها طورا بعد طور ، وما زالت تلك البذور تنمو في رعاية الكتاب.

وإليكم بعض ما قيل في الكتابة والكتاب :

قال دزرائيلى : انتق الكاتب الذي تقرأ له بنفس العناية التى تنتقى بها أصدقائك.

وقال شكسبير : مداد الكاتب مقدس مثل دم الشهيد .

وقال أناتول فرانس : « إن الكاتب يكون في بعض الأحيان ملهما خصوصا في اللحظات التى يكون حديث دائرا فيها عن شخصه».

وقال أعرابي : «الكتاب صناعة شريفة تجلس الحقير مجالس الملوك وهى آلة

قانونية تحملها آلة جسمانية تضعف بالترك وتقوى بالإدمان .

وقال ابن المقفع : «الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك»

وقال الجاحظ :«لم أر مثل طريقة الكتاب فإنهم اختاروا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا ساقطا سوقيا».

وقال أعرابي : « كل صناعة تحتاج إلى ذكاء إلا الكتابة فإنها تحتاج إلى ذكاءين جمع المعانى بالقلب والحروف بالقلم»

وقال آخر : « لو أن في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صناعة »

وقال عباس العقاد : « فى كل كاتب شيء من طبيعة النبوة لأنه يحمل رسالة ، «خاصة» من لدن الحياة إلى إخوانه في الحياة ولهذا كان لابد للكاتب من هبة خارقة يحس بها ما لا يحسه سواد الناس ويفهم بها ما لا يفهمون من أسرار هذه الدنيا وعجائب الغيب والشهادة»

وقال جبران خليل جبران : « من نقب وبحث ثم كتب فهو ربع كاتب ومن رأى ووصف فهو نصف كاتب ومن شعر وأبلغ الناس شعوره فهو الكاتب كله»

وقالت كاترين تينان : « لو كانت الكتابة خمرا لكنت أكبر عربيدة على سطح الأرض ، فلا يمكننى أن أمتنع عنها ، لأنها ملأت حياتى بالسعادة والحيوية»

وقالت جاذبية صدقى : « إن الكتابة متعة كبيرة ولكن ثمنها غال . . . كرات الأعصاب الحمراء».

وقال كلثون : « للكتابة ثلاث مصائب : إن تكتب شيئا يستحق النشر ، وإن تجد رجالا أمناء ينشرونه لك ، وإن تجد القارئ اللبيب غير المتحيز»

وقال مصطفى أمين : « أنا أعتبر الكتابة كالتنفس»

ثم ماذا ؟

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ومن الشهوات التى اتبعوها :

مجالس اللهو . . والزهد في القراءة .

إلى الحد الذي صار فيه العربي يقرأ نصف كتاب في العام . . بينما الغربى يقرأ ثمانية وأربعين كتابا . . كما أشارت إحصائية اليونسكو هذا العام ٢٠٠٥ ـ ومعنى ذلك :

تراجع الأمة في مضمار التحضر . . بعدما نضبت رغبتها في القراءة ، فتخلت عن مكان الصدارة .

كما يقرر ذلك أحد الباحثين الغيارى على أمتهم والذي يقول :

القراءة دلالة بارزة على المجتمع المتحضر حيث يقول الفيلسوف الفرنسي فولتير : «يقود الأمم هؤلاء الذين يقرؤون ويكتبون » ، ويقول العقاد : « القراءة تضيف إلى عمر الإنسان أعمارا أخرى وفى أعمار الكتاب والمفكرين الذين يقرأ لهم ».

واشترى الفيروز أبادي صاحب « القاموس المحيط » كتبا بخمسين ألف مثقال من ذهب وكان لا يسافر إلا وبصحبته منها عدة أحمال ومن شدة حبه للكتب علق أحدهم لافتة في بيته كتب عليها : ألا يا مستعير الكتب إليك عنى، فإن إعارتي للكتاب عار، فمحبوبي في الدنيا كتاب،وهل أبصرت محبوبا يعار ؟

وفي أمريكا ظهرت أخيرا فكرة «الأسبوع القومي للانصراف عن مشاهدة التليفزيون ، وأتساءل لماذا يهتم العرب بالخرافات والجن ولا يهتمون بالقراءة والعلم، بينما ينشغل الغرب بالبحث العلمي وعلوم الفضاء والفيمتوثانية ؟

ولقد حاولت البحث عن تفسير لهذا القصور .. فتبين لى :

١- أن الوضع الاقتصادي له دخل كبير في هذا التراجع .

٢- وأن سرعة الحياة لم تترك للاجئين فرصة الاسترخاءة الوادعة في صحبة كتاب.

٣- وأن النفس الملول مصروفة عن قراءة الكتاب الطويلة والتي تعالج موضوعا واحدا.

ومن أجل ذلك :

كانت هذه الأفكار القصيرة . . والتى يمكن ـ ومع مرور الأيام ـ أن تنشئ في النفوس عادة القراءة من خلال التنقل من فن إلى فن . وبلا معاناة . . إلى جانت كونها . . قد تكون . . «خميرة» لحديث أو خطبة أوسع مدى . .

والله وحده المسؤول أن يبلغنا المأمول .

د. محمود محمد عمارة

obeikandl.com